القصص
نشأته في الإسلام وتطوّره

الدكتورة وديعة طه النجم
الاستاذة المساعدة ـ كلية الآداب

لم يكن القصص الذي نشأ في الاسلام جديدا كلّ الجدّة ، بل ان من القصص ما تناقلته الاجيال حتى وصل الى المسلمين ، ومنه ما كان دائرا في المجتمع العربي قبل الاسلام واستمر بعد ظهور الاسلام • لكن الباحثين يختلفون في أسباب ظهور القصص بعد الاسلام وفي زمن ظهوره وكيفية ظهوره والظروف التي احاطت به • فالمستشرق (مكدونلد) يرى بأن القصص بدأ في الاسلام لغاية دينية الا ان القصاص الاوائل ـ في رأيه ـ كانوا يقومون بدور المشجعين أمام المقاتلين ، يثيرون فيهم الحماس الديني كالشعراء في الايام الجاهلية ، وان هؤلاء القصاص استعملوا اسلوبا خاصا هو السجع الذي اسرفوا في استعماله[1] • ونجد شيئا شبيها بهذا الرأي عند جرجي زيدان ، وهو يؤكد على قصص الشجاعة والبطولة كقصة عنترة التي نقلت شفاها حتى عصر متأخر[2] • ويقف زيدان عند هذا الحد ، لكن مكدونلد يتابع تطور القصص الى المسجد الاسلامي فيرى بأن هؤلاء القصاص استمروا في القصّ وانتهى بهم المطاف طبيعيا الى ان يصبحوا قصاصا محترفين فيما بعد لاغراض دينية ايضا •

ان هذه الصورة التي يعرضها الباحثان الجليلان مبسطة وواضحة جدا عن اوليات القصص في الاسلام الى درجة لا تحتاج الى اقناع كبير • اما الصورة التي تعرضها لنا المصادر الاسلامية القديمة ، فانها لا تستوي بهذه السهولة وبهذه البساطة ، لأن فيها شيئا كبيرا من الارتباك وعدم الاتفاق حول هذا الموضوع ، حتى لتثير في انفسنا شتى التساؤلات والاستفسارات • فالروايات الاسلامية تشير الى وجود

---

(١) McDonald, art. Kissa, Ency. Isl.
(٢) آداب اللغة العربية (١٩٥٧) جـ٢ ص ٣٣٨ •

القصاص منذ زمن النبي (ص) مؤكدة ان النبي نفسه استمع الى القصص ونقله وشجع عليه . فقد استمع النبي (ص) الى قصص نقلها تميم الداري تتصل بالمسيح الدجّال ودابة الأرض وتؤكد الرواية على ان النبي (ص) جمع المسلمين ليلقي عليهم هذا الحديث الذي سمعه من تميم الداري[٣] . يضاف الى ذلك ان ابيّ بن كعب الذي كان النبي (ص) يقرّبه ويقول له (أُمِرتُ ان اعرض عليك القرآن ..)[٤] وقد كان من كتّاب الوحي المعروفين ؛ تنقل عنه المصادر الاسلامية قصصا عن الانبياء ينتهي بعضه الى النبي (ص) نفسه وينقله عنه رواة من قصاص الاسرائيليات المعروفين كوهب بن منبّه[٥] . ومع ذلك نجد روايات تنفي القصص عن اول الاسلام وتعترض عليه بصورة ظاهرة محاولة ان تجعل القصص بدعة لم يعرفها المسلمون الاولون وانما ادخلها المتأخرون منهم .

أما القصص الذي عرف عند الأمم الاخرى فقد جاءت الاحاديث بنفيه وبهلاك اصحابه ، وقد اشتهر من بين هذه الاحاديث ما جاء عن خباب بن الأرتّ عن النبي (ص) قال « قال رسول الله (ص) ان بني اسرائيل لما قصّوا هلكوا »[٦] . وليس بامكاننا ان نثبت او ننفي صحّة احاديث كهذه ، الا ان هناك شيئا مهمّا نلمسه من خلال تلك الاقوال ؛ تلك هي الدلالة التي تحملها هذه الاحاديث ، اذ فيها دليل واضح على نظرة بعض المسلمين الى القصص لاسيما قصص الاسرائيليات الذي نقله قصّاص من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام . وقد روي « ان كعبا كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص »[٧] . ولا يمكننا ان نغفل التلميح هنا الى حديث بني اسرائيل الذي جاء في القرآن الكريم ، وان تمرد بني اسرائيل على موسى (ع) ادى بهم الى التيه وقصّ الأثر اذ روي الحديث بصورة اخرى هي « ان بني اسرائيل لمّا هلكوا

---

(٣) تاريخ ابن عساكر (ط ١١٣١) جـ ٣ ص ٣٤٨ ـ ٥٠ ، كذلك مقالة بعنوان (تميم الداري اول قاصّ في الاسلام) ـ مجلة كلية الآداب ـ بغداد سنة ١٩٦٢ .

(٤) ابن سعد : الطبقات (بيروت ١٩٥٧) جـ ٢ ص ٣٤٠ـ٤١ .

(٥) البلخي : البدء والتأريخ (Huart) جـ ٢ ص ١٠٠ ، ابو نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء (١٩٣٣) جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٦) الابشيهي : المستطرف (١٣١٤هـ) جـ ١ ص ٩٠ . (٧) المصدر نفسه .

قصّوا » اي لما تاهوا صاروا يقصّون الاثر – كما يفسره البعض –[٨] .

وتشير كثير من المصادر الاسلامية الى ان النبي (ص) قد نهى عن القصص ولم يسمعه ، ولم يوجد القصص في زمن ابي بكر ولا عمر (رض) ، وانما نشأ أول ما نشأ زمن الفتنة ، أول حرب اهلية في الاسلام ، او قبل ذلك بقليل في خلافة عثمان (رض) نفسه . فقد قيل للحسن « متى احدث القصص » قال « في خلافة عثمان بن عفان » . وقيل : « من اول من قصّ » قال : تميم الداري »[٩] ، وان كانت بعض المصادر تجعل تميما يقص منذ خلافة عمر (رض) ، ويستمر في القص بعد ذلك ايضا[١٠] . لكن ابن عمر يقول « انما كان القصص حين كانت الفتنة »[١١] ، ويعني بذلك عند أواخر حكم الراشدين ، لانه يذكر انه لم يقصّ احدٌ على عهد الرسول ولا عهد كلٍّ من أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ . ويؤخر البعض بداية القصص الى اكثر من ذلك ، فقد نقل المقريزي عن ابن عمر ايضا انه قال « لم يقصّ في زمن رسول الله (ص) ولا أبي بكر ولا عمر ولا عثمان (رض) وانما كان القصص في زمن معاوية »[١٢] .

حينما ننظر الى هذه الروايات يلفت نظرنا فيها ان اصحابها يظهرون شيئا كبيرا من الحذر والتوقي عندما يحاولون تسجيل بدايات القصص واولياته في الاسلام . ويختلفون في تأريخها اختلافا له شأنه ، لكن الميل الظاهر بين اكثرهم هو ان يجعل بداية القصص متصلة بأحداث الفتنة . ولا يستطيع الباحث الا ان يلتفت الى طبيعة وضع السؤال الذي وجّه الى الحسن اذ قيل له « متى أحدث القصص » وكأن السائل يحمل في ذهنه ان القصص شيء أحدث احداثا ، وقد يحمل في طيّه معنى البدعة والحَدَث الجديد ، وجاء الجواب على ذلك بأشكاله المختلفة مطابقا لما في نفس السائل .

---

(٨) هكذا وردت الرواية في لسان العرب لابن منظور مادة (قصص) .

(٩) المقريزي : الخطط (١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ٢٥٣ .

(١٠) العسقلاني : لسان الميزان جـ ١ ص ٣٧٢ .

(١١) الابشيهي : المستطرف جـ ١ ص ٩٠ ، المكي : قوت القلوب (١٣١٠هـ) جـ ١ ص ١٤٨

(١٢) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٢٥٣ .

ان هذا الاختلاف الظاهر بين المصادر الاسلامية ، لاسيما المتأخرة التي يتحمس أصحابها لنفي القص عن اول الاسلام ، قد يحمل الينا دلالة على أمور كثيرة أهمها :

اولا : ان القصص في اول الاسلام كان لخدمة غاية دينية بالدرجة الاولى ، وان مفهومه عند اكثر المسلمين لم يختلف عن مفهوم الوعظ الديني ، وانه كان يروى لكي يتعظ فيه الناس بمن سلف من الامم ؛ وانه في ذلك يشترك اشتراكا واضحا مع القصص القرآني الذي كانت غاية الوعظ والارشاد هي الموجّه الاول له[١٣] .

ثانيا : ان نقطة الانطلاق التي افلت فيها القصص الاسلامي من غايته الدينية الاولى هي احداث الفتنة ، هذه الاحداث التي اطلقت عقال كثير من الاتجاهات في الاسلام فيما بعد . وبما ان القصص الاسلامي الاول أخرج عن غايته الاولى في هذه الفترة بالذات لارتباطه بأحداث سياسية واسعة كأي مظهر من مظاهر النشاط الادبي والفكري في المجتمع الاسلامي لهذه الفترة ـ فليس بمستغرب لدينا اذن ان يعتبر الكتاب المسلمون هذه الفترة ـ بعد خلافة عثمان خاصة ـ هي الفترة التي يرجع اليها اول القصص في الاسلام . وكأن الكتاب المسلمين يخرجون من اعتبارهم القصص الذي كان قبل هذه الاحداث لانه لم يكن ـ في مفهومهم ـ كالقصص الذي عرفوه فيما بعد . فكأن هذه الفترة نقطة تحول في اتجاه القصص الاسلامي كما كانت نقطة تحول في حياة المجتمع الاسلامي الاول .

ثالثا : ان القصص في العصور المتأخرة ـ وكلما تقدم بنا الزمن ـ بدأ يخرج عن النطاق الديني المحض وصار يعكس لنا ـ لا اتجاها دينيا واحدا ـ بل اتجاهات المذاهب المختلفة التي وقعت تحت تأثيرات حضارية جديدة ، وصار اصحابها

---

(١٣) يروى المكي عن زياد النميري انه أتى زاوية أنس بن مالك ، فطلب منه هذا أن يقص لكنه امتنع قائلا ان الناس يزعمون انها بدعة ، فقال له أنس : ليس شيء من ذكر الله تعالى بدعة ، قال : فقصصت وجعلت اكثر قصصي ودعائي رجاء أن يؤمن ، قال فجعلت اقص وهو يؤمن . وقد كانوا يجعلون الدعاء قصصا ـ قوت القلوب (ط ١٩٣٩) ج ٢ ص ٢٥ .

يتبادلون التهم فيما بينهم محاولين ان يجدوا جذور مبادئهم في الدعوة الاسلامية الاولى . وبما ان القصص كان وسيلة من وسائل الدعوة والموعظة – منذ اول نشأته – فلا بد ان يعكس هو ايضا هذا الانفصام بين المذاهب المختلفة – كما حصل بين أهل الحديث والمتصوفة مثلا – فيحاول كلّ طرف ان يذهب الى ان القصّ عند اوائل المسلمين كان لغاية دينية محضة ، وانه اصبح فيما بعد بدعة في ايدي غيرهم ، وليس بغريب اذن ان ينفي المتأخرون القصص عن اول الاسلام ، او في اقلّ الاحتمالات ان يجعلوا غايتها مختلفة عن غاية القصص المتأخرة .

فهذه الروايات واشباهها تحاول ان تربط بين اول القصص والاحداث التي جرت في المجتمع الاسلامي في هذه الفترة ، مضيفة الى القصص غايات تتصل بهذه الاحداث اتصالا مباشرا ، وذلك لان القصص صار تعبيرا عن هذا الطور الذي دخله المجتمع الاسلامي ، ولم تعدْ غايته معينة تُقصر على المعاني الاسلامية الاولى . فقد جاء عن يزيد بن حبيب « ان عليّاً قنت فدعا على قومٍ من أهل حربه ، فبلغ ذلك معاوية فأمر رجلا يقصّ بعد الصبح وبعد المغرب يدعو له ولأهل الشام . قال يزيد وكان ذلك اول القصص »[١٤] . ولعل هذا هو أول استغلال ظاهر للقصص في سبيل غاية سياسية عامة ، وبهذا فتح بابٌ للقصاص يدخلون منه الى الحياة العامة .

على ان هذا لا يعني ان جميع القصاص كانوا من طبقة واحدة ، اذ بقي جماعة مشهورة بينهم قصروا انفسهم على غاية الوعظ الديني واستعملوا القصص من أجل ذلك او فسروا القرآن مع تفصيل ذكر الاحداث التأريخية التي كان لهم بها علم . فقد ذكر الجاحظ ان عمرو بن فائد وهو أبو عليّ الاسواري قصّ ستّاً وثلاثين سنة ، وكان حافظا للسّير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسّر آية في عدة اسابيع وكان يقصّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك[١٥] . كما يقول

---

(١٤) المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ٢٥٣ ، الكندي : الولاة والقضاة (١٩٠٨ – بيروت) ، ص ٣٠٣ نقلا عن العسقلاني .

(١٥) الجاحظ : البيان والتبيين (ط هرون) ج ١ ص ٣٦٨ – ٣٦٩ .

الجاحظ عن قصاص البصرة بأنهم اخطب من الخطباء ، وكان يجلس اليهم عامة الفقهاء[١٦] لكن رغم كراهة القصص من قبل بعض النسّاك كالحسن البصري ، فقد غلب كثير من هؤلاء القصاص على عواطف الناس باظهار النسك والزهد ايضا ، والقصّ في آن واحد . فقد روى ابو نعيم الاصفهاني حادثة طريفة وقعت للحسن البصري في المسجد مع احدهم قال :

« ان عبدالله بن غالب كان يقصّ في المسجد الجامع فمرّ عليه الحسن فقال : يا عبدالله لقد شققت على أصحابك . فقال : ما أرى عيونهم تفقأت ولا أرى ظهورهم اندقّت ؟ والله يأمرنا ياحسن ان نذكره كثيرا وأنت تأمرنا أن نذكره قليلا ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ، ثم سجد . قال الحسن والله ما رأيت كاليوم ما أدري اسجد أم لا ؟ »[١٧] .

ومما يلفت النظر ان بعض المصادر الزيدية تؤكد ان علياً (رض) قد شدد على القصاص ولم يكن يتسامح مع اولئك الذين يستغلون القصص لغير الغاية الدينية . فقد جاء بأنه رأى قاصا يقصّ فسأله : اتعرف الناسخ والمنسوخ ، قال : لا ، فقال عليّ له : لذلك هلكت واهلكت ، ونهاه عن القصّ[١٨] . وقيل بأنه سمح للحسن البصري فقط ان يعظ في مسجد البصرة . لكن من الغريب ان تقوم المصادر الشيعية القصصية المتأخرة بنسبة روايات في الخلق وقصص الانبياء الى عليّ (رض)[١٩] كما تقوم مصادر اخرى بنسبة اكثر قصص الانبياء الى الأئمة مفسّرة اسرار الامم الغابرة على السنتهم ، كما انها تفسر بعض الاحداث الاسلامية في ضوء احداث تلك القصص ، مما يدل دلالة ظاهرة على قيمة هذا القصص في

---

(١٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٩١ .

(١٧) حلية الاولياء ج ٢ ص ٢٥٧ .

(١٨) A. Zaidi Manual of Hisba of the 3rd. Century, A.H. R.B. Serjeant, R.S.O. vol. 27. pp. 1—34.

(١٩) راجع قصص الخلق عند الثعلبي : قصص الانبياء (١٣٠١) ص٤ ، كذلك قصة يونس – خبر علي (ر) مع احبار اليهود الذين قص عليهم تفاصيل قصة اصحاب الكهف واسمائهم وتاريخهم ص ٣١٥ – ١٦ ، وروايات فى الكتب الجغرافية عن الانبياء منسوبة الى الامام ايضا : ابن رسته : الاعلاق النفسية (ليدن) ص ٢٨ .

حياة المجتمع الاسلامي – كلما مرّ الزمن[٢٠] .

ان أهمية القصص في الحياة العامة لهذه الفترة من التاريخ الاسلامي – أي بعد خلافة عثمان وفي خلافة معاوية خاصة ، لها دلائل كثيرة اهمها ما قام به معاوية بعد وفاة عثمان (رض) مباشرة اذ جعل القصص مهمة أناطها برجل معين . ولكي يسبغ على القصص صبغة دينية ورسمية ، لا مجرد وعظ يقوم به أي انسان ، جمع اليها القضاء في شخص واحد هو سليم بن عتر التجيبي الذي تكاد المصادر تجمع على انه اول من عين للقص والقضاء . وكان ذلك في سنة اربعين للهجرة أي بعد صفّين ، وقد كان سليم قبل القضاء قاصا فجُمعا له[٢١] .

وبالرغم من ان المصادر الاسلامية تسبغ على هذا القصص طابع الزهد والموعظة الدينية بأن تنسب الى التجيبي الزهد والتشدد في العبادة حتى انه كان يختم القرآن في الليلة الواحدة ثلاث مرات – وهذا امر تردده المصادر عن اكثر اوائل القصاص الذين نلتقي بهم – وبأنه كان يقوم اياما متوالية يؤدي الصلاة شكرا لله عز وجلّ .. الخ ، الا اننا مع ذلك نسمع بأن احد اصحاب النبي (ص) – وهو صلة بن الحارث الغفاري – يخاطب التجيبي قائلا : « والله ما تركنا عهد نبيّنا ولا قطعنا ارحامنا حتى قمت انت واصحابك بين اظهرنا »[٢٢] وكأن هذا القول يعرض بالتجيبي تعريضا . فهذا ان دلّ على شيء فانما يدلّ على ان اوائل المسلمين انفسهم كانوا يتحفظون من هذا القصص الذي صار يخرج عن غايته الاولى . نضيف الى ذلك ان هناك ما يدل على ان سليم التجيبي هذا كان ميالا الى مساندة الامويين وانه كان اول من دعا الى مبايعة يزيد بعد وفاة معاوية ، فقيل له تعريضا به :

---

(٢٠) انظر نعمة الله الجزائري : النور المبين فى قصص الانبياء والمرسلين (النجف ١٩٦١) – مقدمة المؤلف .

(٢١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٠٣ ، يسميه المقريزي سليمان بن عتر التجيبي ويقول انه بدأ القص في سنة ثمان وثلاثين ، وبقي عليه مع القضاء ثلاثين سنة (الخطط : ج ٢ ص ٢٥٢–٥٤) .

(٢٢) الكندي : الولاة والقضاة : ص ٣٠٣ .

« .. وأما انت ياسليم بن عتر فكنت قاصـــا فكان معك ملكان يفتيـــانك ويذكّرانك ، ثم صرت قاضيا فمعك شيطانان يزيغانك عن الحق ويفتنانك »[٢٣] .

ثم عزل التجيبي سنة ستين بعد تولي يزيد الخلافة ، ولكنه لم يكن المثـــل الوحيد الذي يدل على اهتمام الخلفاء انفسهم بمهمة القصّ ، واتخاذ قاصّ معين يقوم به . فقد جمع عبدالعزيز بن مروان القضاء والقصص في شخص واحد هو عبدالرحمن بن حجيرة المتوفى سنة ٨٣هـ وذلك في قضاء مصر ايضا وقد بقي عليهما اثنتي عشر سنة ، وكان يتسلّم مشاهرة معلومة على القصص الى جانب مرتّباته الاخرى على القضاء وبيت المال[٢٤] ..

فالقصص اذن كان وسيلة من وسائل الاداء الاسلامية ولقد استعمل من قبل الوعاظ بالدرجة الاولى للمعاني الدينية ، ولذلك نجد عامة المصادر الاسلاميـــة لا تكاد تتحدث عن القصص الا وهو مرتبط بالوعظ ، ونادرا ما تفرق بين لفظـة (قصص) ولفظة (وعظ) ، الا حينما اصبح القصص (بدعة) ـ كما يقولون . ولعل ابن الجوزي اكثر من وفق في وصف هذا الموضوع وهو شديد على القصاص واصحاب البدع ـ كما يسميهم ـ لان ابن الجوزي ـ وقد عاش حتى اواخر القرن السادس الهجري ـ قد ادرك من شأن القصص ما لم يدركه غيره ، بعد ان اصبح القصص والتفسير من الوسائل السهلة المتناول في ايدي اصحاب المذاهب والاهواء المختلفة ، يدخلون بواسطتها الى قلوب الناس ، يقول :

« كان الوعّاظ في قديم الزمان علماء فقهاء وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبدالله بن عمر (رض) . وكان عمر بن عبدالعزيز يحضر مجلس القاص »[٢٥] .

---

(٢٣) المصدر نفسه ص ٣١٠ .

(٢٤) المصدر نفسه ص ٣١٧ .

(٢٥) يلاحظ فى وصف ابن الجـــوزي استعماله لفظـــة (الوعاظ) ثم (القاص) ، وكلتاهما عنده شيء واحد . كذلك يلاحظ عدم التمييز ايضا فى وصف الجاحظ لمواعظ بعض الوعاظ المشهورين باسم (قصص) : البيان (ط هرون) جـ ١ ص ٢٩ ـ ٩١ ، وانظر كذلك البغدادي : تاريخ (١٩٣١) جـ ١٢ ص ٧٦ فى ترجمة علي بن محمد المصري ، يصف مواعظه بلفظة (قصص) . وكذلك عن بكر بن عبدالله المزني فى : حلية الاولياء للاصفهاني جـ ٢ ص ٢٢٧ .

ثم خسّت هذه الصناعة فتعرض لها الجهّال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس ، وتعلق بهم العوام والنساء فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع في هذا الفن »[٢٦] .

فالحياة الاسلامية حين اتسع نطاقها كان القصص فيها وسيلة من وسائل التعبير عن حاجات وغايات جديدة كان لابد ان تصبغ بالصبغة الاسلامية الدينية . وجميع هذا القصص الذي نتحدث عنه ـ بمختلف اشكاله وغاياته ـ يظهر متصلا شديد الصلة بالمسجد الاسلامي وبحلقاته بالدرجة الاولى . وليس هناك دليل كاف على ان الوعّاظ اتخذوا أماكن للقصّ او الوعظ خارج نطاق حلقاتهم في المسجد خاصة ، او كان لهم نشاط يذكر غير النشاط الذي يتخذ طابعا دينيا في مظهره[٢٧] . كما انه ليس هناك دليل كاف على ان القصص حلّ محلّ الشعر في مناسباته ، وان كانت هناك أشارات تدل على ان الشعر بأوزانه الخفيفة المصحوبة احيانا بآلات موسيقية بسيطة كان لا يزال يستعمل في الحث على القتال في الحروب حتى بعد الاسلام[٢٨] . بل لقد ذكر ان الفرس انفسهم في حروبهم مع المسلمين في العراق كانوا ربما استخدموا الشعر والتغني به في اول القتال[٢٩] . كما جاء ذكر الخطب للحث والتوجيه ؛ أما قصص الموعظة والحث الذي قيل انه كان يلقى أمام المقاتلين فالارجح أنه لم يشكل عمودا فقريا في القصص الاسلامي كما لم توجه المصادر الاسلامية الضوء اليه على انه اول القصص ، او حتى انه صورة من صوره المهمة .

ان التطور الذي اصاب القصص في الاسلام ودفع الكتاب المسلمين الى التميز

---

(٢٦) ابن الجوزي : تلبيس ابليس (١٩٢٨) ص ١٢٣ .

(٢٧) من الجدير بالذكر ان المصادر لا تشير الى ما يدل على أن القصاص اتخذوا مجالسهم خارج المسجد أو الحلقات العامة الا اشارة واحدة عن واعظ كان يقص في داره في البصرة في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وهو زرارة بن اوفى : حلية الاولياء ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٢٨) ابن الاثير : الكامل (ط مصر) ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٠٤ .

بين المتقدم منه والمتأخر قد ادى الى ظهور تصنيف مهم للقصص والقصاص عند الكتاب المسلمين ، الا وهو :

(١) قصص العامّة .

(٢) قصص الخاصّة .

وان كانت غاية هذا التصنيف او حدوده غامضة علينا بعض الشيء ، لاختلاف الكتاب المسلمين انفسهم في تحديدهما . فقد نقل المقريزي عن الليث بن سعد في وصف قصص العامة انه القصص « الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم فذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه . اما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية ، ولّى رجلا على القصص فاذا سلّم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عزّ وجلّ ، ومجّده وصلى على النبي »[٣٠] .

فكأن الليث بن سعد هنا يريد ان يقول بأن الفرق بين قصص العامة وقصص الخاصة ينصب على الفرق بين القاصّين ؛ فالقاصّ الذي يجلس ليجمع الناس حوله يعظهم ويذكرهم متبرعا هو ليس كالقاصّ الذي يطلب اليه ان يجلس للقصّ أو تعيّنه جهة خاصة ، لا سيما وان هذا التعيين قد صدر هنا عن الخليفة نفسه ، وهذا الفرق قد يؤدي الى نتائج منها ان القاصّ الذي عين لهذه الغاية يقتصر واجبه على أمور خاصة عين لها فهو لا يتكسب او يحتال على المال احتيالا ، وقد مرّ بنا ان هذا التعيين ربما استوجب مشاهرة معلومة للقصّ . أما قصاص العامة فقد يتخذون القصّ وسيلة للكسب ، ولذلك فالقصّاص الذين استهجنت طرائقهم ووصفوا بأنهم من (الغوغاء) هم « القصاص الذين يستأصلون اموال الناس بالكلام »[٣١] .

ومع هذا فمن الطريف ان نجد ان بعض الروايات لا تؤيد ما ذهب اليه الليث بن سعد في التمييز بين العام والخاص من القصّاص . فقد ذكر البغدادي في حديثه عن منصور بن عمار السلمي الواعظ والقاصّ انه قدم الى مصر وجلس

---

(٣٠) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣١) الابشيهي : المستطرف ج ١ ص ٩٠ .

يقصّ على الناس فسمع كلامه الليث بن سعد فاستحسن قصصه وفصاحته ، وحين يسأله الليث عما اقدمه الى مصر يقول : طلبت اكتسب الف دينار ، فيدفع الليث ابن سعد اليه الفا ويدفع ابناء الليث اليه الفا اخرى[٣٢] . ومنصور بن عمار هذا رجل زاهد واعظ ، لكنه قاصّ يتكسب ويستجدي ويسأل الناس الصدقة لنفسه في المساجد ، والناس يعجبون به ويمنحونه ذلك عن طيب نفس . ولقد حذر بعض العلماء من مجلسه ، لكن كثيرا منهم اعجب بحسن كلامه ومنطقه ولقد نقل لنا البغدادي نماذج من كلامه المعجب في الزهد وفي حسن فهمه للقرآن[٣٣] .

فالتكسب بالقصص لا يضير القاصّ بل هو سمة من سمات هذه العصور ، فكما كان التكسب بالشعر لا يضير الشاعر شيئا فكذلك هو لا يضير القاصّ شيئا ، ومع هذا فأكثر القصاص يصنّفون في طبعة العوام ، أو ان بينهم خاصة وعامة ، وقد حاول الكتاب المسلمون وضع حدود اخرى مميزة بين الصنفين . فالمكّي – وهو من دعاة التصوف – يميز بين العالم الحقيقي والقاصّ فيقول بان العالم يُسأل فيجيب عادة ، ولا يبتديء القول بنفسه ، والقاصّ يجمع الناس اليه ويبدأهم بالحديث بنفسه ، ويروي عن مالك بن أنس قوله « من اذالة العلم ان ينطق به قبل ان يُسأل عنه ... »[٣٤] . وفرق آخر بينهما ان القاصّ يجتمع اليه جمهور غفير ، وعدد عظيم من الناس .

ان هذه الفروق التي تؤكد عليها المصادر الاسلامية هي فروق تصدر من خشية غلبة القصّاص على انفس العامة ، لا سيما والعامة ينجذبون اليهم للمتعة التي يجدونها في احاديثهم . لكن هذه الفروق التي يحاول الكتاب المسلمون ان يثبتوا فيها مستوى معينا من الوعظ الديني لا تكاد تخرج عن المجال النظري ، لان الواقع لا يؤيدها دائما لان القصّ نشأ في عامة الناس وغلب على عواطفهم ، حتى لم يُعد

---

(٣٢) البغدادي : تاريخ بغداد (ط السعادة ١٩٣١) ج ١٣ ص ٧٢ .

(٣٣) المصدر نفسه : ص ٧٢ – ٧٧ .

(٣٤) المكي ، قوت القلوب (١٩٣٩) ج ٢ ص ٢٩ .

القصّاص يتخفّون تحت اطار الوعظ الديني ، فاختلط بعضهم بالمكادي ، كما جعل البعض الآخر القصص معاشا وكسبا في البلدان[٣٥] .

ومع كل ما تقدم نجد قصص العامة هذه هي في الحق اقرب الصنفين الى القصص الفني الذي يعنى به الدارسون من الناحية الادبية . ففي حين بقي قصص الخاصة يعنى بناحية الوعظ ، ويهدف الى غاية معينة محدودة ، اتسع قصّاص العامة في قصصهم التي تميزت بأعاجيبها وأخيلتها ، حتى خرجوا به الى مجالات شتى بغية ارضاء مستوى الخيال الطليق الذي يتمتع به جمهورهم الذي لا تحده غاية معينة ولا منطق عقلي في كثير من الاحيان ، بل تغلب عليه عواطف الاثارة نحو الحزن او الفرح . ولعلّ المقدسي من اكثر المؤرخين اجادة في وصف هذا النوع من القصص الذي شحن صدور العامة بالاباطيل ـ على حد قوله ـ ، اذ قال عن هؤلاء الذين يتوقون الى هذا النوع من القصص بأن « الحديث لهم عن جملٍ طار أشهى اليهم من الحديث عن جملٍ سار ، ورؤيا مريّة آثر عندهم من رواية مرويّة ... »[٣٦] .

وقد لا نفوت الصواب اذا قلنا ان هذا القصص هو الذي مهد السبيل الى استقلال القصة شيئا فشيئا عن المجال الديني وجعلها تقوم بنفسها . فتنقل ثم تسجل لنا بأيدي مؤلفين تبرعوا في السنين المتأخرة بتسجيلها ونقلها كالذين سجلوا لنا قصص الف ليلة وليلة ، أو قصص البطولة التي تمتاز بخيالها الخصب الذي لا يرتبط بالواقع الا قليلا . وهذا القصص هو الذي مهد السبيل لظهور فن فريد في الادب العربيّ قريب الى الفنّ القصصي ـ وليس هو بذاك ـ هو فنّ المقامة ، الذي يرتبط بالعامّة وقصصهم وأساليبهم ايمّا ارتباط .

واهمّ ما يلفت نظرنا في قصص العامّة هذه انها :

١ ـ تستوعب القصص الشعبي الذي يدور على السن الناس منذ أقدم الازمان ، لا

---

(٣٥) ابن الجوزي : تلبيس ص ١٢ .

(٣٦) البدء والتأريخ : ج ١ ص ٣ .

على السنن المسلمين وحسب ، بل على السنن الامم التي اتصل بها المسلمون وامتزجوا بها في العصور المختلفة كذلك .

٢ - انها تصوّر لنا الذوق العامّ الذي يتمتع به المجتمع الاسلامي عبر العصور ، والذي وجّه القصّة وجهتها الفنّية الخاصّة ، مهما امتازت به من سذاجة ونقص في منطق الاحداث ، والسبب في ذلك هو هذا التفاهم المستمرّ بين القاصّ وجلسائه الذين يجتمعون اليه من اصناف الناس وطبقاتهم .

فالقاصّ هو بمثابة ناشرٍ يعطي جمهوره ما يتذوقونه ويرغبون فيه ، والجمهور بدوره يبحث عمّا يمتع ويسلّي ويسمو به الى آفاق جديدة وبعيدة في خيالها ، وان شطّ هذا الخيال ، لا سيّما وانّ عامّة من يحضر هذه المجالس - كما يقول ابن الجوزي - هم « العوامّ الذين بواطنهم مشحونة بحبّ الهوى فيضلّ القاصّ ويُضِلّ »(٣٧) .

نعم ، وهو يخرج بهم الى عوالم جديدة .

---

(٣٧) تلبيس ابليس ص ١٢٤ .